ليـــلى العفيفة

للمرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب

. . . لعل أسمى مراتب العظمة الانسانية فى الحياة الدنيا هى تلك الكلمة الصغيرة التى تفنى الأجيال وهى باقية ، وتتقلب الأزمنة وهى ثابتة ، وتخفت الكواكب والأقمار وهى متلألئة متوهجة ، والتى أسميها ، ويسميها الناس معى « . . الخلود . . » ! !

نعم . . إن أعظم مافى الحياة الدنيا وأبقى مافيها من خير هو الخلود من غير شك . . وإذا قلنا إن الخلود هو أمتع مافى الحياة من جمال وروعة ، فلأننا نريد أن نقول أيضاً إنه صعب المنال عسر الادراك . لا يشترى إلا بأغلى مافى النفس البشرية ، وأغلى ما فيها . . وهى الحياة . . فمن ضحى بحياته ، أو كان على استعداد لتضحيتها فى سبيل سعادة غيره ورفاهيته ورفع الظـــلم عنه نال الخلود لأنه أناله لغيره ، أو حاول أن ينيله إياه — إن قصر أجله عن إتمام ذلك —

ومن ضحى بوقته وراحته فى سبيل تثقيف الغير وتعليمهم ، وتهذيبهم ونشر نور العلم بينهم ، لن يفنى وإن فنى جسمه ، ولن يُنسى وإن اختفى شخصه ، ورجع الى الأرض التى منها نشأ وعليها تربى .

فالحياة والذكرى ليستا وقفا على الجسوم الحية المتحركة . . وإنما هى رهينة تلك الأعمال الجليلة التى أداها أصحابها ، وعلى تلك الخدمات الصادقة التى بذلوا فى سبيلها راحتهم وشبابهم ، والتى لن تفنى حتى يفنى الفناء ، ولن تزول حتى تتبـدل الأرض غير الأرض والسموات .

فكم من حى لا تعرفه إلا نفسه ، وكم من ميت بلى عظمه وفنى جسمه ، ومع كل فهو يملأ القلوب بحبه ، ويملأ الدنيا بذكره واسمه .

ومن هؤلاء الخالدين المرحوم الأستاذ « محمد عبد المطلب » الذى تعرفون عنه أكثر مما أعرف ، وتقدرون أعماله الجليلة كما أقدر ، وتؤمنون بعبقريته الفذة كما أومن ، وتعترفون بشاعريته الخصبة السامية كما أعترف ، وتفخرون بدرره اللامعة — التى حلى بها جيد العربية — كما أفخر .

لهذا فانى أعتقد أنكم تودون أن تقرءوا له شيئاً لتمتعوا أنفسكم بسحر هذا الشاعر البدوى الذى سيدهشكم الآن بأسلوبه الحضرى الرقيق ، وبتفكيره العصرى الذى نُمجز عنه ونحن فيه .

وقبل أن أعرض للأستاذ المرحوم شيئاً أود أن أقول : إنه كان من أسبق الشعراء الى تأليف الروايات ، فله فى دار الكتب من عشرين سنة مضت روايتا « المهلهل » و « امرىء القيس » وله أيضاً عدة روايات وضعها للمدرسة السعيدية وقت أن كان مدرساً بها :

وكأن المرحوم شعر بحاجة المسرح المصرى الى روايات عربية سليمة التفكير رقيقة التعبير ، فوضع له فى سنة ١٩٠٩ رواية « ليلى العفيفة » ، ولكن حظ المسرح التعس حال دون ذلك — لأن الأستاذ لكثرة أعماله فى مدرستى دار العلوم والقضاء الشرعى لم يستطع إتمام القصة ، وحاول فى أواخر أيامه أن يتمها ولكن الموت القاسى عاجله ، فحرمنا من تراث أدبى نافع . على أننا سنعرض الجزء الذى كُتب من « ليلى العفيفة » بنت لكيز ، وهى التى حاربها الزمن على يد أبيها بضع سنوات ، فأذاقها مُرَّ الحياة وشقاء العيش ، وذل الأسر . . . ولكن الله جلت قدرته أنالها سعادتها مضاعفة ، ورد عليها فتى قلبها وبطل أحـــلامها جزاء وفائها وإخلاصها . . .

أن تخرج خلقاً جديداً لامجرد تكرار ، ولتكن لنا من اليابان عبرة

إنا لنصغى إلى ما يقوله الغربيون من أن مدنية الشرق ليست إلا فلسفة لاهوت ، فان الأصم يرى فى اللعب على (البيانو) حركات أصابع مجردة عن نغم الموسيقى ، وهم لايعرفون إننا قد بنينا تقاليدنا على أسس من الحقائق التى تدخل الطمأنينة والسلوة فى قلب الانسان ، والتى تجعل وجدانه دائم اليقظة والحياة .

لقد اجهت الشمس المشرقة العالم فكانت الأولى فى الشرق وهذا السبيل ، ولقد أشعلت الأمل فى فؤاد الشرق فحق عليه أن يقدم لها الثناء ، ومن يدرى فقد يكون هذا بشيراً بأن يعم النور الخ هذا المكان الذى بزغت فيه شمس الآدمية لأول مرة .

محمد مختار المحامى

ولعل القارئ يدهش من هذا ويعجب ، إذ كيف يحارب رجل ابنته ويذيقها الألم المض ، ويمنع عنها سعادتها ورفاهيتها . والمعروف أن الآباء يتسابقون الى جلب السعادة لبناتهن ؟ !

ولعله لا يدهش ولا يعجب عند ما أقول له : حقاً إن الآباء يفعلون هذا وأكثر من هذا ، ولكنهم فى مسألة واحدة ، بل وفى لحظة واحدة يهدمون حياة بناتهن ، ويسقونهن كأس الموت مترعة ، ويقاومون شعورهن ، ويتجاهلون إحساسهن ، ويدفعونهن الى الهاوية باسم المحافظة عليهن . فترى الرجل منهم عند ما يعلم أن ابنته تهوى إنساناً وتحبه ، وتود من صميمها أن يكون رجلها . تراه فى هذه اللحظة قد تنمر وركب رأسه الأخرق ، ووقف بينها وبين من تحب رافضاً زواجهما ، آبياً جمعهما ؛ بل يزوجها ممن يحب هو ويريد ، محتجاً بأنه أعرف منها بمصلحتها ! فتكون الطامة ، وتكون النهاية السوداء فى أغلب الأحايين ! .

وهذا ما حصل فعلاً مع ليلى بنت لكيز فانها كانت مخطوبة لابن عمها البراق ، وكان الحب يجمعهما برباطه المقدس . فرأى لكيز بعقله الأخرق ، وحماقته المجنونة أن يفسد هذه الخطبة ، وأن يقبل خطبة عمرو بن ذى صهبان لابنته طمعاً فى ماله وشجاعته !.. فانظر اليه وقد زاره أحد بنى كليب لينهاه عما فعل حرصاً على البراق ورحمة بابنته التى تحبه وتهواه :

كليب : ما لأبى ليلى حزيناً مطرقا ؟

لكيز :

أرقنى شغل بليلى أرقا ... جمّع من همى ما تفرقا
عمرو بن ذى صهبان لما حققا ... أن لما فى الحسن جدا صدقا
وفى المعالى غاية لن تلحقا ... بادر فى خطبتها مستبقا

كليب :

رام ابن ذى صهبان صعب المرتقى ... إن سمع البراق أو تحققا
بأن عمرا باب ليلى طرقا ... أرعد كالليث لنا وأبرقا
وطبق الأرض علينا طبقا

لكيز :

لكن عمراً بالأيادى سبقا ... قلدنا نعماه وطوقا
يجود كالغيث علينا غدقا ... إذا بنا صرف الليالى أحدقا

كليب :

لكنه ليس من البراق ... أحق بالطاهرة النطاق
نقية الأعراض والأعراق ... وهو فتى الجيش لدى التلاق
وما لبكر غيره من واق ... إذ تأخذ الخطوب بالخناق
وتلعب الأرواح بالتراق ... فى يوم هول مظلم الآفاق

حتى إذا يئس كليب هدده بقوله :

إياك يا ابن العم أن تجيبا ... فان فيه اللوم والتأنيبا
وإن ليلى — إن تكن أريبا — ... تأبى سوى ابن عمها خطيبا
وهو وان كان لها حبيباً ... فما أنت نكراً ولا عجيبا
فلا يزال السيد الأريبا ... فى قومها والبطل المهيبا
يكفيهم البأساء والكروبا

فينضب لكيز من قول كليب ويستأسد قائلا :

ويحك ! هل ليلى ترد أمرى ... برد هذا وقبول عمرو ؟
رضيت عمراً أن يكون صهرى ... ما حجتى فى رده ؟ ما عذرى ؟
أليس فى منعيه عين الغدر ... ولو أبى البراق إلا هجرى ؟
فليجر فى قطيعتى ما يجرى

وقد أنصف كليب كل الأنصاف حينما ذكره بأنه غدر بابن أخيه فقال له :

يا أبا ليلى كفى . فالحقوق . أنكرتها . ذلك الغدر
وأحاديث الجفا . والعقوق . كررتها . حلوها مر
غضب البراق . مر لا يطاق . وله العذر

ولكن أترى لكيزاً يأبه لهذا ويهتم به ؟ كلا وإنما يمعن فى قسوته ، ويسترسل فى شدته ، ويأبى إلا تنفيذ ما رآه . ولو كان ما رآه هو الخطل بعينه ، فاسمع الى ابنته ليلى وقد عرفت من أمرها ما عرفته : فأخذت تشكو الى الله ظلم أبيها ، وتعدد مناقب ابن عمها ، وتبثه لواعج غرامها . ثم تعرج على خطيبها المكروه فتتمنى من الله أن يقبض روحها قبل أن تزف اليه ، فتواسيها صديقتها سلمى فلا تستمع اليها ، ولا تزداد إلا أنيناً ، وإلا حسرة على بعاد براقها

ليلى :

رب ! كم تبلو وتمتحن إن قلبي شفه الحزن
كلما قلت انجلت محن عاودتني بعدها محن

سلمى :

هل أتى عن ركبنا نبأ محزن، من بعد ما ظعنوا ؟

ليلى :

لا ، ولكني أرى جللا عاجلا يسعى به الزمن
يا ابن عمي إن لي كبداً قد براها بعدك الشجن
إنما البراق خير فتى فيه بنت العم تفتتن
صده عني أبي سفها وأبي في رأيه أفن
وأتى عمرو ليخطبني فأذلتهم له المدن
ليت شعري ما الذي خبأت لي من أحداثها اليمن
ليتني يوم أزف له يحتويني قبله الكفن

سلمى :

إن في الأيام معتبراً والليالي بينها غبن
اصبري ليلى ! ولا تهني إن عزم الحر لا يهن

ليلى :

ارحمي يا سلم والهة غلقت من قلبها الرهن
وارحمي البراق فهو بنا قد جفا أجفانه الوسن

وكما قلنا من قبل أن أرواح العاشقين متجاوبة تشعر بشعور واحد ، وتحس باحساس واحد وفي وقت واحد . فاننا نستطيع أن نقول هنا إن براق أحس ما أحسته ليلى ، وشكا مما شكت منه ، فقال لصديقه عقيل :

براق :

ياعقيلا ، ياعقيلا ، ما ترى الليل طويلا ؟
ما لنجم الليل لا يبـ ـرح عن الأفق أفولا ؟

عقيل :

طال ليلي وهو أولى بعد ليلى أن يطولا

براق :

بالأسى قد عيل صبري

عقيل :

أي نعم ، صبرك عيلا
يا ابن روحان رويدا واصبر الصبر الجميلا

براق :

إن يحل دوني فافي عن هواها لن أحولا
يرتضي مثل ابن ذي صهبان من ليلى حليلا
إن ليلى يا عقيل لا ترى مني بديلا
ظلموني ظلموها أغضبوا السيف الصقيلا
أنا إن لم أسق عمي بالردى كأسا وبيلا ...

فيخاف عقيل من هذا التهديد ويخشى عاقبته . . ويشفق للكبر أن يقتله ابن أخيه فيقول لصديقه بخبث :

عقيل :

أوترضى يُنْمَ ليلى ؟

فيستفيق براق حينما يسمع اسم ليلى ، وتأخذه عليها الشفقة والرحمة ، ويخاف كرهاً إن هو نفذ تهديده . . فيكرر صديقه الخبيث قوله :

عقيل :

أوترضى يُنْمَ لَيلى.؟

براق : لا ولا ، حسبي ذهولا
قطع السيف يميناً تترك العم قتيلا
والفتى من كان للأهلين مسعاها وصولا

غير أن براق يرى أن من المستحيل عليه معاشرة أهله ، وقد حطموا قلبه وفتتوا كبده فيقول :

غير أني لا أرى عن أرضكم إلا الرحيلا
بالقوى للنوى زموا عن الحي الحمولا
وإلى البحرين في صبح غد ، حثوا الرعيلا

حتى إذا كان الصباح رحل براق الى اليمامة ليأسو جرحه ، وينسى ماهو فيه من عذاب وألم . فهل ترى الأقدار ساعدته ؟ أم أنها كانت تعد له من مخبآتها ما أثار شجونه واستفز رجولته وألهب حميته وهو العربي الصميم ؟

نعم إن الأقدار حاربته وعذبته ، فانه ما كاد يستقر في اليمامة حتى علم أن قومه في حرب ضروس مع طيء وخزاعة . فماذا يعمل ؟ أيذهب ويحارب معهم حتى ينتصروا وهم الذين عذبوه ومزقوا قلبه . . ؟ ؟ أم يتركهم لأعدائهم يسومونهم سوء

العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ؟ إنه إن فعل هذا فقد لحقه العار وركبه الذل ، وناهيك بعار العرب وذلهم ، على أنه مع هذا وذاك لم ينس أن يتهكم ويعتد بقوته فيقول :

أتاني أن قومي جد فيهم ... من الحدثين شر مستطير
أناخت بينهم حرب عوان ... ضروس للردى فيها زئير
وما أدري أيذكرني لكيز ... إذا استعرت وطارلها زفير؟
وهل هو بابن ذي صهبان يغني ... إذا عميت على القوم الأمور؟

وما إن ينتهي براق من قوله حتى يخبره خادمه بضيوف يطلبونه ، وسنرى الآن من أخلاق براق ما يدهشنا ، وما يثير إعجابنا

الضيوف : نزلنا يا أبي نصر ... سلام يا أبا نصر
دعونا ك الى أمر ... فهل تصغى الى الأمر؟
بنو عمك قد جاروا ... ومدوا سبب الشر
وقد خانوك من قبل ... بمحض البغي والغدر
فحالفنا وأيدنا عليهم واسع في النصر
تحالفك على من شئ
ت في بر وفي بحر

براق :

ذروني لست أترك آل قومي
وأرحل عن فنائي أو أسير
بهم ذلي إذا ما كنت فيهم
ولكن لي بهم شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسر
وأرحل إن ألم بهم عسير ؟

وفي إثر هذا القول الذي خيب ظن القوم يخرجون وهم يتميزون غيظاً ويحترقون ألماً . بل وفي إثره أيضاً يعلم براق بموت أخيه وانكسار قومه ، وأسر أغلبهم وفيهم « ليلى » فيطير عقله ، وينخلع قلبه ، ويسافر تواً الى قومه ويجمع شملهم وينظم عقدهم . ويشاء الله أن ينتصر انتصاراً حاسماً وأن يشتت أعداءه ، ويمزقهم شر ممزق ثم يرجع بحبيبته ليلى ليستأنفا سعادتهما وحبهما ، وهو يقول :

ياليل قومك عنك قد نكلوا ... يا خجلتي يا بئس ما فعلوا
أفأسلموك وأمعنوا هربا ... وتخطفتهم دونك السبل ؟
أم كانت الجلى فما ثبتوا ... وعن الحريم لهولها ذهلوا ؟
أهلوك لا ميل ولا كشف ... عند اللقاء ، إذا هم نزلوا
إن يخذلوك فرب معترك ... عميت به النجدات والحيل

* * *

هذه عجالة رأينا من الخير للأدب أن ننشرها للناس لتكون ذكرى طيبة للأستاذ الخالد ، ولتكون نواة صالحة ، وقدوة حسنة لمن يود أن يكتب الشعر العربي الرصين للمسرح المصري . رحم الله الفقيد وأسكنه مساكن الشهداء والصالحين ؟

محمد السيد المرسي

ابن سعود

سياسته ، حروبه ، مطامعه

بقلم
مصطفى الحفناوي

عن وليمز وآرمسترونج «بتصرف»

ثمنه ١٢ قرشاً ، ويطلب من المطبعة المصرية بالأزهر تليفون ٥١٧٠٤

ومن مكتبة الهلال بالفجالة ، والمكتبة التجارية بشارع محمد علي